وبعث معه نفراً فيهم أبو ذؤيب ففي عبد الله يقول:

وصاحب صدق كسيد الضراء ... ينهض في الغزو نهضاً نجيحا

في قصيدة له فلما قدموا مصر مات أبو ذؤيب بها، وقيل إنه غزا مع عبد الله بن الزبير ... أبو عبيدة بها. وقيل إن أبا ذؤيب خرج مع ابنه وابن أخ له يقال له أبو عبيد حتى قدموا على عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: أي العمل أفضل يا أمير المؤمنين؟ قال: الإيمان بالله ورسوله. قال: قد فعلت، فأيه أفضل بعده؟ قال: الجهاد في سبيل الله. قال: ذلك كان عليّ ولا أرجو جنة ولا أخاف ناراً. ثم خرج فغزا أرض الروم مع المسلمين، فلما قفلوا أخذه الموت، فأراد ابنه وابن أخيه أن يتخلفا عليه جميعاً فمنعهما صاحب الساقة وقال: ليتخلف عليه أحدكما وليعلم أنه مقتول. فقال لهما أبو ذؤيب: اقترعا، فطارت القرعة لأبي عبيد فتخلف عليه ومضى ابنه مع الناس، فكان أبو عبيد يحدث قال: قال لي أبو ذؤيب: يا أبا عبيد احفر ذلك الجرف برمحك ثم اعضد من الشجر بسيفك ثم اجررني إلى هذا النهر فإنك لا تفرغ حتى أفرغ، فاغسلني وكفني ثم اجعلني في حفرتي وأهل عليّ الجرف برمحك وألق عليّ الغصون والحجارة ثم اتبع الناس فإن لهم رهجاً تراها في الأفق إذا أمسيت كأنها جهامة. قال: فما أخطأ مما قال شيئاً ولولا نعته لم أهتد لأثر الجيش. وقال وهو يجود بنفسه:

أبا عبيد رفع الكتاب ... واقترب الموعد والحساب

وعند رحلي جمل نجاب ... أحمر في حاركه انصباب

ثم مضيت حتى لحقت الناس، فكان يقال إن أهل الإسلام أبعد أثراً في بلاد الروم فما كان وراء قبر أبي ذؤيب قبر يعلم لأحد من المسلمين. وهذا كان رواية الزبير بن بكار السابقة، والله أعلم أي ذلك كان.

ولئن نطقت بشكر برك مفصحاً ... فلسان حالي بالشكاية أنطق

البيت من الكامل ولا أعرف قائله. والشاهد فيه ما في البيت قبله فإنه شبه الحال بإنسان متكلم في الدلالة على المقصود، وهذا هو الاستعارة بالكناية، فأثبت لها اللسان الذي به قوام الدلالة في الإنسان المتكلم، وهذه الاستعارة التخييلية. وقريب من معناه قول ابن الخيمي:

أبداً أحن إلى محيا كل من ... يضحي البعيد إليه وهو مقرب

وأروم شكوى موجعات الجوى ... أخفيتها لكن لعلك تشفق

نادى لساني بالصبابة ... ولسان حالي بالصبابة ينطق

وأفوه بالشكوى والمشافهة ... بيننا تقصر فيحيى الوطن ...

صحا القلب عن سلمى وأقصر باطله ... وعري أفراس الصبا ورواحله

البيت لزهير بن أبي سلمى وهو أول قصيدة من الطويل وبعده:

وأقصرت عما تعلمين وسددت ... علي سوى قصد السبيل معادله

إلى أن يقول فيها:

فقلت اقصر وسدد طريقه ... وما هو فيه عن وصاتي شاغله

وقلت تعلم أن للصيد غرة ... وإلا تضيعها فإنك قاتله

فاتبع آثار الشياه وليدنا ... كشؤبوب غيث يحفش الأكم وابله

نظرت إليه نظرة فرأيته ... على كل حال مرة هو حامله

وهي طويلة. وقصر عن الشيء بمعنى انتهى عنه. والشاهد فيه ما في البيت قبله أيضاً فإنه أراد أن يبين أنه ترك ما كان يرتكبه من المحبة من الجهل والغي وأعرض عن معاودته فتعطلت آلاته، فشبه في نفسه الصبا بجهة من جهات المسير كالحج والتجارة قضى منها الوطر فأهملت آلاتها. ووجه الشبه الاشتغال التام به وركوب المهامه والمسالك الصعبة غير مبال بمهلكة ولا محترز عن معركة. وهذا التشبيه المضمر في النفس استعارة بالكناية، فأثبت له بعض ما يختص بتلك الجهة وهي الأفراس والرواحل التي بها قوام جهة السير والسفر، فإثبات الأفراس والرواحل استعارة تخييلية. والصبا على هذا من الصبوة بمعنى الميل إلى الجهل والفتوة. ويحتمل أنه أراد بالأفراس والرواحل دواعي النفس وشهواتها والقوى الحاصلة لها في استيفاء اللذات، وأراد بها الأسباب التي قلما تتآخذ في اتباع الغي إلا أوان الصبا وعنفوان الشباب، فتكون استعارة الأفراس والرواحل تحقيقية لتحقق معناها عقلاً إذا أريد بها الدواعي، وحساً إذا أريد بها أسباب اتباع الغي.

الضاربين بكل أبيض مخذم ... والطاعنين مجامع الأضغان

هو من الكامل ولا أعرف قائله. والمخذم بالذال المعجمة السيف القاطع، والأضغان جمع ضغن وهو الحقد. والشاهد فيه القسم الأول من أقسام الكناية وهو أن يكون المطلوب بها غير صفة ولا نسبة، ويكون لمعنى واحد كما هنا، أو يكون لمجموع معان. فقوله مجامع الأضغان معنى واحد كناية عن القلوب. ونحوه قول البحتري:

فأتبعتها أخرى فأضللت نصلها ... بحيث يكون اللب والرعب والحقد

إن السماحة والمروءة والندى ... في قبة ضربت على ابن الحشرج